طوائف التجار وأقسامهم في أسواق الموانئ في مصر وبلاد الشَّام منذ قيام الدولة الفاطمية حتى نهاية الدولة المملوكية (٣٥٨- ٩٢٣هـ /٩٦٨ – ١٥١٧م)

هـــانـــــي حســـــن أحمـــد حســـــن (*)

مقدمة:

نتيجة للنشاط التجاري الواسع في أسواق الموانئ بمصر وبلاد الشام، والتي كان كل من: البحر المتوسط ، والبحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي من أهم معابرها، أن ظهرت طبقات متعددة من التجار، والذين انتقلت التجارة على أيديهم حتى بلغت أسواقها النهائية بالموانئ المختلفة(١).

وشكل التجار فئَّة هامَّة في بناء المجتمع خلال فترة الدراسة، وكان النشاط التجاري بين الشرق والغرب سببًا مباشرًا في ازدياد ثراء هؤلاء التجار وجعلهم طبقة غنية بشكلٍ كبير، فصارت بأيديهم الثروات الكبيرة والأموال الطائلة والمنشآت التجارية المختلفة في أسواق الموانئ المصرية والشَّامية، وعاش البعض منهم في رَغد ورفاهية وطيب حياة، ووفرت أسواق الموانئ في مصر وبلاد الشام جانبًا كبيرًا من الحرية لمرتاديها التجار من مختلف الجنسيات والطوائف المختلفة، وتسبب ذلك في جذب هؤلاء التجار إلى مختلف المراكز التجارية، فعملوا على تأسيس وكالات لهم اقتضتها الأمور التجارية المتعددة.

وتعددت طبقات التجار وأصنافهم وأقسامهم في مصر وبلاد الشام خلال فترة الدراسة، ويمكن تصنيف التجار في أسواق الموانئ كالآتي: (التجار المسلمون، وتجار أهل الذمة؛ بالإضافة للتجار الأجانب)، وتاجر هؤلاء في مختلف أنواع السلع مثل: الرقيق، واللآلئ، والعقيق، وسائر أنواع الحجر الكريم، والذهب، والفضة، والثياب، والحرير، والمسك، والعطور، والبخور؛ بالإضافة إلى تجارة التوابل، وأسهم هؤلاء التجار بشكل كبير في نشاط الحركة التجارية في أسواق الموانئ المصرية والشامية، وفيما يلي تفصيل لأقسام التجار وطبقاتهم، حيث يُتَنَاول هذا البحث بعدد من المباحث ومنها ما يلي:-

---

(*) من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [أسواق الموانئ في مصر وبلاد الشام منذ قيام الدولة الفاطمية حتى نهاية الدولة المملوكية (٣٥٨- ٩٢٣هـ /٩٦٨ – ١٥١٧م)]، وتحت إشراف: أ.د / ممدوح محمد حسن – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. أميمة أحمد السيد – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، ط٢، ١٩٠٦م، ص٨٦؛ القلقشندي (عبدالله بن أحمد القلقشندي ت٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٣٣هـ/١٩١٥م ، ج٥، ص٩- ١٠؛ ٢٨؛ ممدوح محمد حسن: الإجراءات والرسوم الجمركية في الموانئ اليمنية في عهد الدولتين الأيوبية والرسولية، مجلة كلية الآداب بقنا، العدد (٣٤)، ٢٠١١م، ص٣٨٧.

المبحث الأول: تجار المسلمين:

يمثل المسلمون النسبة الأكبر من أهالي البلاد في مصر وبلاد الشَّام، وعمل بعضهم بالتجارة، وكان لهم الكثير من العمائر التجارية المختلفة، والتي خدمت تجارتهم بشكل كبير، وتنقل هؤلاء التجار فيما بين أسواق الموانئ المصرية والشَّامية، سواءً للبيع أم لشراء السلع المختلفة، وحققوا من وراء ذلك أرباحًا طائلة.

ففي خلال القرن (٧ هـ / ١٣ م) كان تجار المسلمين يسمح لهم باجتياز الأراضي التابعة للصليبيين في ساحل بلاد الشَّام بعد أن تُحَصل منهم المكوس (الضرائب الغير شرعية)، وهي عبارة عن دينار وقيراط من الدنانير الصُورية عن كل رأس، حيث طبقت تلك الضريبة بكل أسواق الموانئ الشَّامية التي بأيديهم، وبعد ذلك يتجه هؤلاء التجار لينزلون بُنزل تم إعدادها خصيصًا لهم للراحة والمبيت(١).

إلى جانب التجار المسلمين من أهل الشَّام ومصر، كان هناك التجار المسلمون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، والذين تنقلوا ما بين بلدان العالم الإسلامي للتجارة، كتجار المغرب والعراق وغيرهم من تجار أقطار العالم الإسلامي المختلفة(٢)، ومن تجار المسلمين أيضًا تجار الكارمية(٣)، وكان أول نشاط لهم في عصر الدولة الفاطمية، حيث كان للدولة الفاطمية أسطول حربي بعَيْذَاب(٤)، وخُصِص ذلك الاسطول لحماية التجارة الكارمية فيما بين عَيْذَاب، وسَوَاكِن(٥) من قراصنة البحر الاحمر، وتكون هذا الأسطول من خمسة مراكب ثم صارت ثلاثًا، وكان والي قُوص(٦) هو المتولي لأمر هذا الأسطول، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه لصد خطر هؤلاء القراصنة(١).

---

(١) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ت٦١٤هـ/١٢١٧م): : رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢) ابن جبير: المصدر السابق، ص٢٧٤؛ راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م، ص٢٣٠،٢٣٣.

(٣) التجار الكارمية: الكارم هي لفظة هندية تعني حرفة التجارة في البحار، وهم فئة من كبار تجار التوابل اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى، وخصوصًا سلع الشرق الغالية في عصر (الفاطميين والأيوبيين والمماليك). (المقريزي (أبي العباس أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص٥٦٧؛ شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٤- ٤٥).

(٤) عَيْذَاب: هي مدينة وميناء على ضفة البحر الأحمر جنوب مصر، ومنها المجاز إلي جده، ، ومرسي عيذاب جزيرة ليست بكبيرة، وهي مرسى السفن القادمة من اليمن للصعيد. (الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، مج٤، ص١٧١).

(٥) سَوَاكِن: مدينة وميناء مشهور، وتقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وجنوبي ميناء عيذاب . (الحموي: المصدر السابق، مج٣، ص٢٧٦).

(٦) مدينة قُوص: هي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، وبينها وبين الفُسْطَاط مسيرة اثنا عشر يومًا. (المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر

ونظرًا لأهمية تجارة الكارم للدولة المملوكية، حيث قامت عليها عظمتها وثروتها المالية، ولذلك أولى سلاطين المماليك اهتمامًا خاصًا بتجار الكارم[٢]، فأنشأوا وظيفة هامة لرعاية مصالحهم، وهي وظيفة ناظر البُهار والكارمي[٣]، وارتبطت هذه الوظيفة بشكل مباشر بتجار الكارم وتجارتهم في الموانئ المختلفة وأسواقها، وكانت الغاية من إنشاء هذه الوظيفة، هي تنظيم جباية الضرائب من تجار الكارم ورعاية مصالحهم التجارية[٤]، وهذه الوظيفة من أجل الوظائف وأرفعها إذ ذكرها القلقشندي[٥] فقال عنها: "هي وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتُجْعل تبعًا لها، وتارَة تضاف إلى الخاص وتُجْعل تبعًا لها، وتارَة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان...".

امتلك الكارميون أسطولًا تجاريًا نظموا رحلاته وجعلوا مقره الرئيسي في قُوص، ليس هذا فحسب بل كانوا يعدون القوافل بأنفسهم ويحمونها بجند وخيالة تعمل لحسابهم، وبذلك استطاعوا جني ثروات طائلة من وراء ذلك[٦].

أما التجار المصريون فكانوا متخصصين في بيع سلع معينة، فمنهم تجار البُهار، وبائعي البُخور، والعطور، وتجار الشمع والصابون، وتجار الغزل والنسيج، فضلًا

عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٥، ص٤٠؛ كما وصفها ابن بطوطة بقولة بأنها: "مدينة عظيمة لها خيرات عميقة، بساتينها مورقة، وأسواقها مونقة". (ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ/١٣٨٠م): رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب،١٩٩٧م، مج١، ص٢٢٨).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٢٤.

(٢) سلكت الدولة الأيوبية مسلك الدولة الفاطمية في الحفاظ على تجارة البحر الأحمر من الخطر الصليبي، حيث أفشلت الحملة التي قادها أرناط أمير حصن الكرك لقطع طريق البحر الأحمر، وعملت على توطيد نفوذ الكارمية وتشجيعهم على التوسع في مشروعاتهم التجارية، وقامت ببناء العديد من الفنادق لهم؛ كما سار على نهجهم سلاطين المماليك فعملوا على الحفاظ على تجار الكارمية وتأمين طرقهم التجارية في البحر الأحمر، وعندما استغاث تجار الكارمية بالسلطان الظاهر بيبرس بسبب ما يلاقونه من طمع في أموالهم من قبل متملك جزيرة سواكن أمر السلطان بيبرس والي قوص عام (٦٦٤ هـ/١٢٦٤م) بتجريد حملة عسكرية استطاعت أن تبسط الحكم المصري على جزيرة سواكن، وأمنت بذلك التجارة والتجار. (المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٦٧؛ شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وأفريقيا، ص٤٥-٤٦).

(٣) ابن مماتي (الوزير الأيوبي الأسعد بن مماتي ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز عطية، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٢٩٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢؛ المقريزي: السلوك، ج٧، ص٢٧٨؛ شوقي عبدالقوي: المرجع السابق، ص٤٩.

(٤) ابن شاهين الظاهري (غرس الدين بن خليل الظاهري ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راوايس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٢م، ص١٠٨-١٠٩؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصُور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٣٢٩.

(٥) المصدر السابق، ج٤، ص٣٢.

(٦) المقريزي: المصدر السابق، ج٢، ص٢١٦؛ صبحي لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مج٤، ع٢، مايو ١٩٥٢م، ص٢٩.

عن تجار السلع الأوروبية الواردة لأسواق الموانئ المحلية كميناء الإسكندرية، وكان يعتبر هؤلاء التجار من الطبقة الغنية، إذ كانت للبعض منهم ثروات ضخمة(١)، وكذلك الحال بالنسبة للتجار الشرقيين من المسلمين (الأتراك، والفرس، وعرب بلاد الشَّام، وشبه الجزيرة العربية، والعراقيين)، حيث قاموا بدور مهم في تنشيط الحركة التجارية خلال فترة الدولة المملوكية، فكل منهم كان يجلب سلع بلاده بأسواق الموانئ المختلفة، فضلاً عن بعض السلع الهندية والصينية، ولذلك خصهم المماليك بالخانات والقيساريات(٢).

أما تجار الغرب الإسلامي فكانوا على اتصال تجاري وثيق بدولة المماليك، وزودوا أسواق موانئها بسلع وسط وشمال وغرب أفريقيا، وأحيانًا ببعض السلع الأوروبية، وكانوا يدفعون الذهب ثمنًا لسلعهم(٣).

وعلى الرغم مما بذل من جهود لحماية التجار المسلمين في الموانئ الصليبية، فنجد البعض منهم تعرض للمخاطر وخاصَّة خلال فترة الحروب الصليبية، ففي سنة (٦٨٧هـ /١٢٨٨م) ورد كتاب نائب الشَّام بأن الصليبيين بطَرَابُلُس الشام(٤)، نقضوا الهدنة، وأسروا جماعة من التجار(٥)، وفي سنة (٦٨٩هـ /١٢٩٠م) ثار أهل عَكّا(٦) على تجار المسلمين وقتلوهم، فغضب السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)(٧)، وكتب إلى البلاد الشَّامية بعمل مجانيق لحصار عَكّا والانتقام منهم(١).

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٥٩٨-٦١٢.

(٢) اليوسفي (موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٣٥٠- ٣٥١؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة، ص٣٠٦- ٣٠٨.

(٣) اليوسفي: المصدر السابق، ص٣٥٤؛ نعيم زكي فهمي: المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٤) طَرَابُلُس الشام: وهي مدينة جميلة على شاطئ البحر المتوسط، وبها أسواق حافلة جامعة، ومرساها مأمون من أكثر الرياح، وهي كثيرة الثمار والخيرات، وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يؤخذ منها الملح الكثير، ولم يكن بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن البحر شارعة في مرساها إلى بيوت أهلها. (الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٢٥-٢٦).

(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٠٨.

(٦) عَكّا: مدينة وميناء على ساحل بلاد الشام، وهي من أحسن بلاد الساحل وأعمرها، وهي أول حدود فلسطين، ولها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة إلى أطراف القدس. (المهلبي: المسالك والممالك، ص١٠١؛ الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الإدريسي ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: روبيناتشي، وآخرون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، مج١، ص٣٦٥).

(٧) السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م): هو الملك المنصور سيف الدين أبي المعالي قلاوون الألفي الصالحي النجمي، وكان أصله من مماليك الأمير آقسنقر الكاملي، وبويع بالخلافة بعد خلع الملك العادل سلامش، في سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) ولقب بالملك المنصور، واستر بالسلطنة حتى وفاته سنة (٦٨٩ هـ /١٢٩٠م). (ابن تغري بردي: ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف بن سيف الدين بن تغري بردي الأتابكي ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م): مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبدالعزيز، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،

تجدر الإشارة إلى أن بعض التجار الكارمية أقرضوا السلاطين الأموال للقيام بالمشروعات سواءً كانت حربية أو مدنية[٢]؛ ويعتبر السلطان الناصر محمد بن قلاوون السلطان (٦٩٨-٧٤١هـ/ ١٢٩٩-١٣٤١م)[٣] من أكثر سلاطين المماليك اقتراضًا من التجار، فحينما اقترض مبالغ مالية كبيرة في عام (٧٣٥هـ/١٣٣٤م)، وعجزت خزانته الخاصة عن تسديدها، وقدرت حينها بخمسمائة ألف درهم، وعندما طالب التجار بأموالهم التي أقرضوها للسلطان تم التعامل معهم بقسوة من قبل رجال السلطان، فَضرب جماعة منهم بالمقارع واستأصل أموال كثير منهم[٤]؛ وكذلك في سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م)، حيث اقترض السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م)[٥]، من ثلاثة تجار من تجار الكارمية وهم: (خلف التاجر

١٩٩٧م، ج٢، ص٣٨-٤١؛ ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (د.ت)، ص٣٤٧-٣٤٨).

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج٢، ص٢١٦.

(٢) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ق١، ص٥٠؛ المقريزي: السلوك، ج٦، ص٥٥؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٤١؛ آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبدالهادي عبله، دار قيبة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥م، ص٣٩٣.

(٣) السلطان الناصر محمد بن قلاوون: هو الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي محمد بن السلطان المنصور قلاوون، وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، جلس على كرسي السلطنة ثلاث ولايات مختلفة، فالولاية الأولى في سنة (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م)، والولاية الثانية خلال الفترة (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٨م)، والولاية الثلاثة خلال الفترة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣١٠-١٣٤١م)، ويعد بذلك من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية، وخاض حروبًا ضد الصليبيين والمغول، وشهدت مصر في فترة حكمه الثالثة نهضة حضارية وعمرانية لم تشهدها في عهد أي سلطانٍ آخر من سلاطين الدولة المملوكية. (ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٤٥-٤٧، ٥٦-٥٨، ٦٤-٦٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١-ق١، ص٣٧٨-٣٨٠، ٤٠١-٤٠٢، ٤٣١-٤٣٣).

(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج٣، ص١٨٧.

(٥) السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م): هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن الأمير أنص العثماني، أصله جاركسي، وتدرج في الرتب حتى صار مقدم ألف، ولا يزال يترقى حتى تولى السلطنة الأولى بعد خلع الملك الصالح حاجي، وذلك في سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م)، وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، واستمر بالسلطنة حتى عزل من منصبه وحبس في قلعة الكرك، وذلك سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م)، ولكنه استطاع بمساعدة أصدقائه تحرير نفسه والهروب من سجنه وهزيمة مناوئيه والعودة إلى عرش السلطنة مرة ثانية، وذلك في سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)، واستمر في السلطنة حتى توفي سنة (٨٠١ هـ/١٣٩٨م). (ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج٢، ص١٠٩، ١١٢، ١١٨-١٢١؛ ابن إياس: المصدر السابق، ج١- ق٢، ص ٣١٨-٣٢٠، ٤٣٤، ٥٣٠-٥٣١).

المحلي، والخروبي، وابن مسلم)، وَقُدِر ذلك المبلغ بمائتي ألف دينار، والتزم محمود الأستادار[١] بذلك المبلغ، وكتب لهم بذلك صكًا ضمنه فيه أحد الأمراء[٢].

المبحث الثاني: تجار أهل الذمة (اليهود والنصارى):

ضمت تلك الفئة التجار من أهل البلاد سواءً من النصارى أو اليهود في مصر وبلاد الشَّام، وعمل جزء كبير منهم بالتجارة فيما بين مصر وبلاد الشَّام[٣]، ففي بلاد الشَّام وجد عدد كبير من تجار النصارى، وعملوا بالعديد من أسواق الموانئ الشامية كقَيْسارية[٤]، وحَماة[٥] على نهر العاصي[٦]، وكذلك أسواق الرَقّة[٧] على نهر الفرات[٨]، كما وجدوا بأسواق اللاذِقِيَّة[٩] بساحل الشام[١٠]؛ بالإضافة لأسواق ميناء طَرَابُلُس[١] بساحل الشام[٢].

---

(١) الإستادار: لفظة فارسية ترد بصيغ عدة مثل (إستاد دار، إستاد الدار، إستادار، إستدار)، وكان يوكل إليه أمر البيوت السلطانية من مطابخ وشراب وحاشية وغلمان وسائر أمور هذه البيوت. (ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣٥٤؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ٨٧؛ محمد عبدالله سالم العمايرة: المعجم العسكري المملوكي، دار كنوز للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص٢١).

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج١- ق٢، ص٤٦٨.

(١) Jessica L. Goldberg: Geographies Of Trade And Traders In The Eleventh-Century Mediterranean: A Study Based On Documents From The Cairo Geniza, Columbia University, 2005, P.333.

(٤) قَيْسارية: مدينة ساحلية على ساحل بلاد الشام البحر المتوسط. (المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤).

(٥) حَماة: مدينة وميناء نهري ببلاد الشام، وتقع على نهر العاصي، وتقع فيما بين دمشق وحلب. (المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٧؛ الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٠؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٢م، ج٢، ص١٧٩،٢٢٣).

(٦) المقدسي: المصدر السابق، ص١٧٧؛ الحموي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٠٠؛ وليم الصوري: المرجع السابق، ج٢، ص١٧٩، ٢٢٣.

(٧) الرَقّة: مدينة مشهورة على نهر الفرات، وبينها وبين حَرّان ثلاثة أيام، وبذلك تكون معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، وكان بالجانب الغربي مدينة أخرى تعرف برقة واسط، وأسفل من الرقة بفرسخ توجد الرقة السوداء، وهي قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة قديمة الخطة حسنة الأسواق كثيرة القرى والبساتين والخيرات، ومعَدَنْ الصابون الجيد والزيتون. (الحموي: المصدر السابق، مج٣، ص٥٨-٦٠؛ نادية محسن عزيز: مدينة الرقة ودورها الحضاري في العصر العباسي١٣٢-٣٨٠هـ، منشورات الهيئة العامة السورية، دمشق، ٢٠١٠م، ص١٢١-١٢٢).

(٨) نادية محسن عزيز: المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢.

(٩) اللاذِقِيَّة: وهي مدينة على ساحل بحر الشام وتعد من أعمال مدينة حِمْص، وهي غرب مدينة جبلة وبينهما ستة فراسخ، وفي عهد ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) كانت من أعمال حلب، وهي مدينة عتيقة رومية الأصل، ولها مرفأ جيد محكم، وفي سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) استولى عليها الصليبيون. (الحموي: المصدر السابق، مج٥، ص٥-٦).

(١٠) أبو شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٤، ص٢٣ وليم الصوري:

ووجد أيضًا تجار أهل الذمة في أسواق ميناء عَكّا[٣]، وكان ديوان التمكيس بعَكّا يتولاه عدد من كتاب النصارى ممن يحسنون التكلم بالعربية والكتابة بها[٤]، وكانت أَيْلَة[٥] من البلاد التي استقر بها عدد من تجار اليهود والنصارى منذ عهد مبكر[٦]، وكذلك أيضًا أسواق ميناء صَيْدا[٧] بساحل الشام[٨].

وفيما يخص مصر فساهم تجار النصارى بنصيب وافر في تجارة أسواق موانئها، ووصف عدد كبير منهم بالثراء الكبير، وتملكوا المراكب التجارية، وخاصَّة في ميناء الفُسْطَاط، وهو ما ذكره ناصر خسرو[٩] عند حديثة عن أحد هؤلاء التجار النصارى بالفُسْطَاط فقال: "إن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد...".

ووجد كذلك الكثير من تجار النصارى بأسواق ميناء تِنيس[١٠]، والتي كانت إحدى المراكز التجارية الكبرى لصناعة النسيج، وكان غالبية سكانها من النصارى[١]،

المرجع السابق، ج٢، ص٥٠؛ هاشم عثمان: الأبنية والأماكن الأثرية في اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٦م، ص٤٧-٥٠

(١) طَرَابُلُس الشام: وهي مدينة جميلة على شاطئ البحر المتوسط، وبها أسواق حافلة جامعة، ومرساها مأمون من أكثر الرياح، وهي كثيرة الثمار والخيرات، وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يؤخذ منها الملح الكثير، ولم يكن بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن البحر شارعة في مرساها إلى بيوت أهلها. (الحموي: المصدر السابق، مج٤، ص٢٥-٢٦).

(٢) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٣٥؛ مصطفى غازي مصطفى: التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠١٦م ، ص١٢٧؛ السيد عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٦م، ص٢٢٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢١٦.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٢٧٥.

(٥) أَيْلَة: مدينة وميناء علي شاطئ البحر الأحمر فيما بين الفُسْطَاط ومكة. (البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ج١، ص٢١٦-٢١٧).

(٦) الحموي: المصدر السابق، ج١، ص٢٩٢؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٥١٩؛ صالح موسى درادكه: دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام، وزارة الثقافة، عَمان، الطبعة الأولى ،٢٠١١م، ص١١٤.

(٧) صَيْدا: مدينة على ساحل بحر الشام، وهي من أعمال دمشق شرقي مدينة صور، ولذلك يطلق عليها أحيانًا صيداء الصُور. (البكري: المصدر السابق، ج٣، ص٨٤٨؛ الحموي: المصدر السابق، مج٣، ص٤٣٧-٤٣٨).

(٨) ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة، مج١، ص٢٦٠؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦م، ص١٠٤.

(٩) ناصر خسرو قبادياني (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م): سفر نامة، ترجمة: يحيى شامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م ، ص١٢١.

(١) تِنيس: عبارة عن جزيرة على ساحل البحر المتوسط قريبة من البر، وتقع فيما بين الفرما ودِمْيَاط، وهي أَجَلُّ من دِمْيَاط واشتهرت تنيس بصناعة الثياب الملونة المعروفة باسم الشروب، وهي التي لا يصنع مثلها في أي مكان آخر داخل مِصْر أو خارجها. (الحموي: المصدر السابق، مج٢، ص٥١-٥٣).

وأيضًا بأسواق ميناء دِمْيَاط [٢]، كما تركز الكثير منهم في أسواق ميناء الإسكَنْدَرِيَّة[٣].

تجدر الإشارة إلى وصول عدد من هؤلاء التجار لدرجة كبيرة من الثراء، وذلك نتيجة لاشتغالهم بالتجارة، ومنهم شخص يدعى (المعلم إسحق المعروف بالأزرق)، وهو من كبار التجار الأثرياء بميناء قفط خلال العصر الفاطمي؛ وكذلك (الأنبا يؤانس أبي المجد بن أبي غالب)، وهو من كبار الأثرياء في
العصر الأيوبي، وكان له دار وكالة بالفُسْطَاط؛ وكذلك (أبو غالب بن سليمان التاجر) بمدينة رَشِيد[٤] في حوالي منتصف القرن (٥ هـ/ ١١م)، وقد تاجر في بضائع وسلع بلاد الشَّام[٥].

إلى جانب تجار النصارى انتشر عدد من اليهود في البلاد المصرية والشَّامية[٦]، واشتغل قسم كبير منهم بالتجارة والصيرفة[٧]، حيث كان بميناء الفُسْطَاط[٨] رجلًا يهوديًا غنيًا له مال كثير يسمى (أبو سعيد) ويتاجر بالجواهر والفضة، وكان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة[٩].

نُسبت كذلك بعض الأسواق والأحياء بالفُسْطَاط إلى اليهود مثل زقاق اليهود[١٠]، وسويقة اليهود، وحانوت جزارة اليهود بحي المصيصة من الفُسْطَاط، حيث كان

---

(١) ابن بسام التنيسي (شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد ت نحو ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): أنيس الجليس في أخبار تنيس، تحقيق: جمال الدين الشيال، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (١٤)، ١٩٦٦م، ص١٨٤.

(٢) المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص٥٠٠.

(٣) بنيامين (بنيامين بن يونة التطيلي الأندلسي ت٥٦٩هـ/١١٧٣م): رحلة بنيامين، ترجمة: عزرا حداد، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠١م، ص٣٥٨- ٣٥٩.

(٤) رَشِيد: بلدة ساحلية مصرية على نهر النيل في غربه، وتتصل بساحل البحر المتوسط شمالًا. (الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الإدريسي ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: روبيناتشي، وآخرون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مجلدان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، مج١، ص٣٤٤).

(٥) ناصر خسرو: سفر نامة، ص١٢١؛ سلام شافعي محمود سلام: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي (٤٦٧-٦٤٨هـ/١٠٥٤-١٢٧٠م)، دار المعارف، مصر، ١٩٨٢م، ص١٨١-١٨٢، ١٩٢.

(٣) Jessica L. Goldberg: Geographies Of Trade And Traders, PP.257,259.

(٧) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب: محمد عبد الهادي أبو رَيْدَة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٦٧م، ج٢، ص٣٨٣-٣٨٤؛ سونيا هاو: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٤.

(٨) الفُسْطَاط: مدينة وميناء على شاطئ النيل الشرقي، وسميت المدينة بالفُسْطَاط لأن سيدنا عمرو بن العاص (رضي الله عنه) نصب فسطاطه أي خيمته هناك مدة إقامته، ولما أراد الرحيل وأمر بهدم الفُسْطَاط أُخبر بأن حمامة باضت بأعلاه فأمر أن يترك الفُسْطَاط لئلا يحصل التشويش للحمامة بهدم عشها وكسر بيضها، ولم يهدم حتي طير أفراخها، وقال : والله ما كنا لنسيء لمن جاورنا واطمأن إلي حمانا". (الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص٢٦١-٢٦٢).

(٩) ناصر: خسرو: المصدر السابق، ص١٢٤؛ آدم متز: المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٣-٣٨٤.

(١٠) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص١٠٨.

يسكن أثرياء اليهود بالفُسْطَاط، ووجدت دار رئيسهم في هذا الحي، والجدير بالذكر أن محلة المصيصة كانت سكن الأغنياء من رجال المال والأعمال(١)، وخلال القرن (٦ هـ / ١٢م) بلغ عدد اليهود الموجودين بالإسكَنْدَرِيَّة (ثلاثة آلاف يهودي)، وفي دِمْيَاط (مائتان يهودي)(٢)، وكذلك في أسواق ميناء قُوص بلغ عددهم (ثلاثمائة يهودي)(٣)، كما بلغ عدد اليهود بالقاهرة والفُسْطَاط (ألفي يهودي)، وكان من بينهم عدد كبير من التجار الأثرياء وكبار العلماء(٤).

ووفد إلي مصر منذ القرن (٤ هـ / ١٠ م) أعدادًا كبيرة من يهود المغرب، وذلك ليعملوا في تجارة الشرق، وهناك أكثر من(٤٠٠ خطاب ووثيقة خاصة بالتجار المغاربة) في وثائق الجنيزة(٥)، وذكرت هذه الوثائق أن غالبية تجار اليهود انخرطوا في تجارة الشرق، والكثير منهم فضل الاستقرار في مصر في السنوات الأخيرة من العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي، وشجعهم على ذلك اطمئنان التجار اليهود وأثريائهم إلى حرية انتقال رؤوس أموالهم من وإلى مصر وازدهار الحياة الاقتصادية في مصر واتساع تجارتها، وكشفت وثائق الجنيزة عما كان لهؤلاء اليهود من جاليات كبيرة في كثير من موانئ مصر ومدنه التجارية وخاصة الفُسْطَاط والإسكَنْدَرِيَّة(٦).

أشار أيضًا بنيامين التطيلي إلي أنه وجد أثناء زيارته لمصر أعدادًا ضخمة من اليهود الذين يقطنون في الموانئ المصرية والمراكز التجارية والصناعية، ومنهم عدد كبير على درجة عالية من الثراء، وبرع اليهود الموجودين في مصر في تجارة الذهب والتحف والجواهر، وكان لليهود بالفُسْطَاط عدد من دور العبادة(٧).

ووجد بميناء أَيْلَة جماعة من اليهود عملوا كبقية سكانها بالتجارة جنبًا إلى جنب مع التجار المسلمين(٨)، وهو ما أكد عليه المقريزي(٩) بقوله: "وكان بأيله مساجد عديدة،

(١) سلام شافعي: المرجع السابق، ص١٧٩، ٢٠١.
(٢) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، ص٣٥٩.
(٣) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص٣٤٧-٣٤٨.
(٤) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، ص٣٤٨-٣٥١؛ صالح موسى: دراسات في الجغرافيا التاريخية التاريخية لبلاد الشام، ص١٢١-١٢٢.
(٥) الجنيزة: تعبر كلمة "جنيزة" عن حجرة تتخذ كمخزن ملحق بالمعبد اليهودي، أو عن أي مكان تطرح فيه أوراق مكتوبة بالحروف العبرية، واكتشف حتى الآن جنيزة الفسطاط، وجنيزة جبانة البساتين، وعرفت هاتان الجنيزتان ضمنًا باسم "جنيزة القاهرة". (جوايتاين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، نشر وكالة دار المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٢٢٧-٢٣١؛ أميمة أحمد السيد: المهر والشوار في مصر العربية الإسلامية من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية (٢١-٥٦٧ هـ /٦٤١-١١٧١م) دراسة تاريخية وثائقية، مجلة وقائع تاريخية، عدد يوليو، ٢٠١٨م، ص١٥٨).
(٦) جوايتاين: المرجع السابق، ص٢٢٧-٢٣١.
(٧) المصدر السابق، ص ٣٤٨-٣٥١.
(٨) الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص٧٠، ٧١؛ صالح موسى: المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢.
(٩) الخطط، ج١، ص٥١٩.

وبها كثير من اليهود.."؛ وأيضًا انتشر اليهود في أسواق الموانئ الموجودة ببلاد الشَّام، حيث احترفوا العمل بالتجارة وأعمالها المختلفة، وفي أسواق ميناء اللاذِقِيَّة وبَيْرُوت وجد نحو(٢٠٠) يهودي باللاذِقِيَّة، وببَيْرُوت وجد نحو (٥٠) يهودي(١).

ووصلت عدد الأُسر اليهودية الموجودة بطَرَابُلُس الشام خلال القرنين (٦-٧هـ/ ١٢-١٣م) ما يقارب من مائة وخمسين أُسرة يهودية(٢)، وقد مارس اليهود في أسواق طَرَابُلُس الشام الأعمال التجارية المختلفة كالصيرفة وغيرها، كما احتكروا دون سواهم صناعة الأصباغ والدباغة وتحضير الغراء(٣).

ووجد في أسواق ميناء صُور(٤) جماعة من اليهود، وبلغ عددهم خلال القرن (٦ هـ / ١٢م) نحو (٤٠٠ يهودي)، وبينهم من يمتلك السفن التي تجوب البحار للتجارة، ومنهم من كان يعمل في صناعة الزجاج النفيس في أسواقها(٥)؛ وأيضًا بأسواق ميناء صَيْدا وجد جماعة من اليهود بلغ عددهم (٢٠ يهودي)(٦)، ورغم أنهم كانوا قليلي العدد ولكن على قلتهم كانوا يتحكمون إلى حد كبير في النشاط الاقتصادي بأسواقها، ومعظمهم اشتغل بالتجارة والصيرفة والصياغة(٧).

كما وجد في أسواق ميناء عَكّا أعدادًا ليست بالكبيرة من اليهود، كذلك مارسوا النشاط التجاري بها، وهو ما أشارت إليه وثائق الجنيزة من خلال الرسائل المتبادلة بين (الحبر يافث بن إلياس) رئيس الطائفة اليهودية بمدينة عَكّا، ورئيس الطائفة الهودية بمصر موسى بن ميمون (ت٦٠٥هـ/١٢٠٨م)(٨)، وبلغ عددهم نحو مائتي يهودي، وفي قيسارية تواجد بها نحو أربعمائة يهودي، وبعَسْقَلان(٩) خمسمائة وأربعين وأربعين يهودي، وكان يأتي ميناءها عدد كبير من التجار لقربها من حدود مصر، كما

(١) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، ص٢٣٠، ٢٣٥.
(٢) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص٢٣٨؛ السيد عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام، ص٢٢٩-٢٣٠.
(٣) بنيامين التطيلي: نفس المصدر، ص٢٣٢-٢٣٣؛ زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج، لبنان، بيروت، ١٩٥٨م، ص١٨٣،١٩٣.
(٤) صُور: مدينة شامية مشهورة على ساحل البحر المتوسط، وهي من الثغور الهامة على ساحل البحر، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الربع الذي منه شروع بابها، وهي مدينة حصينة، وقد استولى عليها الصليبيون سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م. (البكري: معجم ما استعجم، ج٣، ص٨٤٦؛ الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص٤٣٣).
(٥) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص٢٣٨؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص٨٢.
(٦) نفس المصدر، ص٣٥-٣٦.
(٧) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص١٠٥.
(٨) الحميري: الروض المعطار، ص٤١٠؛ سلام شافعي: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي، ص١٩٠.
(٩) عَسْقَلان: مدينة وميناء على ساحل بلاد الشام بالبحر المتوسط. (المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤).

وجدت أعدادًا من اليهود بحِمْص وحَماة، وفي ميناء الرَقّة بلغ عددهم نحو سبعمائة يهودي(١).

المبحث الثالث: التجار الأجانب:

إلى جانب تجار الذمة من أهل البلاد المصرية والشَّامية، كان هناك التجار الأجانب من أهل الذمة القادمين من مختلف البلاد إلى أسواق الموانئ المختلفة، ومنهم تجار جزر البحر المتوسط مثل: (قُبْرُص، وكريت، وصِقِلِّيَّة)(٢).

ومن التجار الأجانب أيضًا تجار جزيرة رودس اليونانية بالبحر المتوسط(٣)، وتجار الكتلان الإسبانية، والبروفانسيون الفرنسية(٤)، وتجار الروم(٥)، وهو اسم يطلق يطلق عادة على تجار الدولة البيزنطية(٦).

تجدر الإشارة إلى أن بنيامين التطيلي(٧) قدم وصفًا لميناء الإسكَنْدَرِيَّة وأقسام التجار التي ترتاد أسواق مينائه فقال: "إسكندرية بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة من البندقية(٨) والأنبرذية وطسقانية وأفولية وأمالفي وصقالية وقلورية ورومانية وخزرية والبجناقية وهنغارية وبلغارية وراغوسة وخرواتية وصقلابونية وروسية وألمانية وسكسونية والدانمرك وكورلندة والنورجة وفريزية وأسكوتية وأنكلترة وويلز... وعدوة الغرب وإفريقية وجزيرة العرب ونواحي الهند وزويلة والحبشة وليبية واليَمَن والعراق والشَّام واليونان المعروفين بالروم والترك، وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها، فيشتريها تجار النصارى، ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم..."؛ وهو ما أكد عليه أيضًا المقريزي عند الحديث

(١) بنيامين: المصدر السابق، ص٢٣٩، ٢٤٢، ٢٦٢، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٣.
(٢) المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٩٨-٦٠٠؛ راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص٢٢٨.
(٣) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية، ص٥١.
(٤) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصُور الوسطى، تعريب أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩١م، ج٢، ص٣٨، ٣٩؛ محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٤، ص٢٤٦.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٢٠- ٤٢١؛ ج١٣، ص٣٣٩- ٣٤٢؛ نعيم زكي: المرجع المرجع السابق، ص٣٠٦.
(٦) سماح السلاوي: الجاليات الأجنبية في مصر في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٠٤.
(٧) رحلة بنيامين، ص٣٥٨-٣٥٩.
(٨) البندقية: مدينة وميناء إيطالي شهير، وتعتبر في مقدمة المدن الإيطالية التي سارعت بإعادة العلاقات التجارية مع مصر زمن الأيوبيين، ففي سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) عقدت البندقية معاهدة تجارية مع صلاح الدين، والتي منحت بموجبها تسهيلات تجارية واسعة لتجارها في ميناء الإسكَنْدَرِيَّة. (بيرو طافور: رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة وتقديم: حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٦-١٧؛ فوزي خالد الطواهية: النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (٥٩٦-٦٤٨هـ/١١٧٣-١٢٥٠م)، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج٤٢، العدد٢، ٢٠١٥م، ص٢٩١).

عن حوادث سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م)، حيث وصل عدد التجار الأجانب بميناء الإسكَنْدَرِيَّة لنحو ثلاثة آلاف تاجر(١).

وقصد أسواق الموانئ المصرية العديد من التجار القادمين من بلاد النوبة(٢)، وكذلك غانة(٣)؛ بالإضافة إلى الحبشة(٤)، والذين قدموا للموانئ المصرية للحصول على سلع البلاد المصرية، فكان تجار مصر يحملون إلى بلاد النوبة الكثير من أدوات الزينة، كما كان الرقيق المجلوب من النوبة (جنوب مصر) موضع تقدير من المصرين خلال فترة البحث(٥).

كثر وجود تجار النوبة في أسواق ميناء أُسْوَان، وكذلك كانت قوافلهم دائمة الورود بوصفها أكبر سوق تجاري ساحلي في جنوب مصر(٦)، وأيضًا كانت المراكب المراكب تأتي إلى عَيْذَاب محملة بالبضائع من الحبشة(٧) وزنجبار حيث يدفع التجار المكوس المقررة عليهم على حسب السلع الواردة(٨).

فيما يتعلق بأسواق الموانئ الشَّامية، لم يختلف بها الحال عن نظيرتها المصرية، وليس هناك بلد في أوربا استورد منتجات الشرق بكميات ضخمة وربطته علاقات تجارية بها كإيطاليا(٩)، فقصدها تجار المدن الإيطالية المختلفة مثل تجار: جنوة(١٠)،

(١) السلوك، ج١، ص٢٩٤.
(٢) المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٥٤.
(٣) غانَة: وهي مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان، ويجتمع إليها التجار، وتعتبر الآن إحدى دول غرب إفريقيا، وتطل على خليج غينيا في الجنوب، وقامت على ضفتي نهر النيجر، وقد شاهد التجار البرتغاليون غانا لأول مرة في عام ١٤٧٠م، وجاء بعدهم الإنجليز في عام ١٥٥٣م، والهولنديين في عام ١٥٩٥م، والسويديين في ١٦٤٠م. (الحموي: معجم البلدان، مج٤، ص١٨٤؛ محمد عتريس: معجم بلدان العالم، ص٢٩٤-٢٩٥).
(٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص١١٨.
(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص٥٥٤؛ راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ص٢٣٦-٢٣٧.
(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج١، ص٣٩، ٤٠، ٢٠٢؛ محمود محمد الحويري: الحويري: أسوان في العصور الوسطى، مطبعة القاهرة الجديدة، القاهرة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٩٦؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية، ص١٧-١٨.
(٧) الحبشة: وأولها من جهة المشرق المائل إلى جهة الشمال بحر الهند المار من باب المندب إلى بلاد اليمن، وهي تقابل بلاد الحجاز، ويفصل بينهما البحر الأحمر، وأكثر أهلها نصارى، وقد تملك ملوكها اليمن قبل الإسلام. (المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، طبع بمطبعة التأليف بمصر، ١٩٨٥م، ص٢-٤؛ ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، خريدة العجائب، تحقيق: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص ١٣٩).
(٨) الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٣، ٤٢٤؛ المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص٥٦٧؛ راشد البراوي: المرجع السابق، ص٢٣٦-٢٣٧.
(٩) هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص١٠٩؛ سونيا هاو: في طلب التوابل، ج١، ص٤٩.
(١٠) جنوة: تبعد عن مدينة مرسيليا قليلًا، وعقدت مدينة جنوة معاهدة تجارية مع صلاح الدين في سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، حيث سمح لها بموجب هذه المعاهدة اتخاذ قنصل لها في الإسكَنْدَرِيَّة يشرف علي تجارها المقيمين بالمدينة وعلى تجارها المترددين عليها، وبهدف تشجيع البيزنطيين

وبيزة[١]، والبندقية[٢]، وأيضًا وجد عدد كبير من جاليات المدن الإيطالية في أسواق الموانئ الشَّامية الأخرى كطَرَابُلُس الشام، وبَيْرُوت[٣]، وحِمْص[٤]، وحَماة[٥]؛ وبالإضافة لأسواق ميناء صُور، والتي وجدت بها عدد من الجاليات الأجنبية، ومن أشهرهم تجار جنوة، والبندقية، وكان لهم أحياء مستقلة في صُور[٦].

ووجدت أيضًا لهؤلاء التجار مكاتب تجارية في أسواق الموانئ المصرية والشَّامية[٧]، وخُصِصَت لكل طائفة منهم فنادق خاصة بهم للنزول مثل: فنادق البندقية، وجنوة، وبيزة، ونابلي، ومارسيليا، وأربونة، وقطالونية وغيرها[٨].

وكان لوقوع بعض تلك الموانئ مثل عَكّا على طريق الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا الأثر الكبير في وجود عدد هائل من تجار أوروبا والمدن الإيطالية في أسواق موانئها[٩].وكان بالإسكَنْدَرِيَّة فندق لكل جالية أجنبية بها، وفي عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م)[١٠]، نجده تعهد لتجار بيزا بترميم فنادقهم[١].

علي الاستثمار في أراضي الدولة الأيوبية سمحت لهم المعاهدة التي وقعها صلاح الدين معهم في عام(٥٦٩هـ/١١٧٣م) علي امتلاك فندق وحمام وكنيسة في الإسكَنْدَرِيَّة. (بنيامين: الرحلة، ص١٩٢؛ طافور: الرحلة، ص٩-١٢؛ فوزي الطواهية: النشاط التجاري، ص٢٩١).

(١) بيزا: إحدى الموانئ الإيطالية المهمة، وكان بها قرابة عشرة آلاف دار محصنة بالأبراج المنيعة، وفي الفترة من (٥٧٢-٥٧٦هـ/١١٧٦-١١٨٠م) توالى وصول السفراء من بيزا إلي الإسكَنْدَرِيَّة للتأكيد على امتيازاتهم التجارية بها. (بنيامين: المصدر السابق، ص١٩٣؛ طافور: المصدر السابق، ص١٢-١٣؛ فوزي الطواهية: المرجع السابق، ص٢٩١).

(٢) هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص١٤٩؛ محمد كرد: خطط الشام، ج٤، ص٢٤٢؛ نعيم زكي: طرق التجارة، ص٢٠.

(٣) بَيْرُوت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام وتعد من أعمال دمشق، والمسافة بينها وبين صيداء ثلاثة فراسخ، استولى عليها الصليبيون في سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م)، وظلت فترة في أيديهم حتى استطاع الناصر صلاح الدين الأيوبي تحريرها منهم في سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م). (الحموي: معجم البلدان، مج١، ص٥٢٥).

(٤) حِمْص: بلد بالشام، وتقع بين دمشق وحلب في نصف الطريق. (اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب اليعقوبي ت ٢٨٤هـ/٨٩٧ م): كتاب البلدان ، تعليق: محمد أمين ضناوي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص١٦١).

(٥) هايد: المرجع السابق، ج١، ص١٨٢.

(٦) هايد: نفس المرجع، ج١، ص١٦٨؛ هنري بيرين: تاريخ أوروبا في العصُور الوسطى، ترجمة: عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٦م، ص٣٤٠.

(٧) هايد: نفسه، ج٣، ص٣٠٠؛ محمد كرد: المرجع السابق، ج٤، ص٢٤٢.

(٨) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص٣٥٩؛ هايد: نفسه، ج٣، ص٣٠٤، ٣٠٥؛ عبدالمنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة،١٩٧٩م، ص١٢٤.

(٩) هايد: نفسه، ج١، ص١٨٦؛ أمين أبو دمعة: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص٢٠٤.

(١٠) الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م): هو العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد، وهو الحادي عشر

الجدير بالملاحظة أنه عادة ما وَصَف الرحالة أسواق الموانئ المصرية والشَّامية بأنها مقصدًا لتجار الفرنجة والأوروبيين[٢]، وذلك لنقل منتجاتها ومنتجات الشرق الأدنى إلى بلادهم، وهو ما أكد عليه ابن جبير[٣] عند وصفه لعَكّا فذكر أنها: "مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من كل مكان..."؛ كما وصف ابن الشحنة[٤] طَرَابُلُس الشام فذكرها أنها: ترد إليها تجار الفرنج بأنواع البضائع، ويحملون منها القطن الكثير وأمتعة الهند المختلفة، وهي بندر عظيم...".

وأدى تجار اليهود من أهل الذمة دورًا بارزًا في التجارة بين الشرق والغرب، وكثيرًا ما كانوا سفراء في المفاوضات بين الملوك والأمراء، فكان التجار اليهود الرازانية يجيدون التحدث بعدة لغات كـ (العربية، والفارسية، والرومية، والأَنْدُلُسية، والإفرنجية، والصقلبية)، كما كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا، حاملين معهم سلع الشرق إلى الغرب، وسلع الغرب إلى الشرق، فاحترفوا التجارة والوساطة التجارية بين العالمين الشرقي والغربي[٥]؛ وهؤلاء اتخذوا من الفَرَما في مصر ممرًا لتجارتهم بين الشرق والغرب[٦]، وأيضًا

من الخلفاء الفاطميين بمصر، وبويع بالخلافة سنة (٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م)، وذلك بعد موت ابن عمه الفائز بنصر الله، وله من العمر آنذاك نحو أربع وعشرين سنة، وفي عهده نزل الإفرنج ثغر دمياط ونهبوا الأسواق وقتلوا أهلها، وفي أثناء فترة حكمه كان الضعف قد لحق بالدولة الفاطمية وصارت في أواخر عهدها، وأيضًا نتيجة لضعف الخليفة العاضد أدى ذلك إلى تنازع الوزراء من حوله على وزارة الدولة وهو لا يحرك ساكنًا، فتنازع على الوزارة كلاً من شاور وضرغام، واستعان شاور بملك الشام **(نور الدين محمود)** وأستعان ضرغام بملك بيت المقدس الإفرنجي، فقام نور الدين بإرسال حملة من الشام لنصرة شاور، وكان علي رأسها أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي، وبعدما اشتد المرض بالعاضد سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) أمر صلاح الدين بقطع الدعاء في خطبة الجمعة عنه، وكان ذلك ايذانًا بانتهاء الخلافة الفاطمية من مصر وبلاد الشام، وتوفي العاضد بعد ذلك بأيام قليلة في نفس العام. (المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الأوقاف، المجلس الاعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٣، ص٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٠-٢٦٤، ٢٦٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١- ق١، ص٢٣٠-٢٣٦).

(٢) C, Raymond, Beazley, M**, A:** The Down Of Modern Geography, London, Vol. II,1901,
P.431.

(٣) Maximiliano A. Alarcón y Santón y Ramón García de Linares: Los Documentos Arabes Diplomáticos del Archivo de La Corona de Aragón, Madrid, Impr, de E. Maestre, 1940, P337.

(٣) رحلة ابن جبير، ص٢٧٦.

(٤) ابن الشحنة (القاضي محمد بن محمد بن محب الدين بن الشحنة الحلبي ت ٨١٥هـ /١٤١٢م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم: عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٦٤.

(٥) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ت ٣٠٠هـ/٩١٢م): المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص١٥٣-١٥٥.

(٦) محمد علي كرد: خطط الشام، ج٤، ص٢٤٢-٢٤٣.

انتشر عدد من التجار اليهود القادمين من جنوبي فرنسا(١)، في أسواق الموانئ الشَّامية كسوق ميناء طَرَابُلُس الشام(٢).

ربطت أيضًا مدينة مرسيليا الفرنسية علاقات تجارية مع مصر، وكانت في أوج نشاطها التجاري معها في القرن (٨ هـ/ ١٣م)، وصَدَرت لها العديد من البضائع من ميناء الإسكَنْدَرِيَّة؛ بالإضافة لحركة التجار منها وإليها(٣)، كما وجدت حركة تجارية بين انجلترا والإسكَنْدَرِيَّة عن طريق ناربون، وكانت انجلترا ترسل إلى بوردو عن طريق البحر شحنات من القصدير والنحاس، وتحمل هذه المواد في مراكب لنهر الجارون، لتصل بعدها لتولوز (جنوب فرنسا)، ومنها تنقل على ظهور الدواب حتى ناربون، ثم تحمل على متن سفن تمضي بها إلى أسواق ميناء الإسكَنْدَرِيَّة(٤).

ونَعِمَّ هؤلاء التجار الأجانب من أهل الذمة بالعديد من الامتيازات، والتي منحت لهم من الحكام الصليبيين خلال فترات سيطرتهم على الموانئ الشَّامية، وذلك كمكافأة لحكوماتهم على تعاونها مع القوات الصليبية وتقديم المساعدات لهم خلال محاولاتهم للسيطرة على تلك المدن والموانئ، ومنها منحهم أحياء خاصة بهم بما تحتويه من كنائس وحمامات ومخابز، ويكون ذلك بمثابة حقًا لهم يتوارثونه ولا يدفعون عن ذلك أي ضرائب، فضلًا عن إعفائهم من بعض الضرائب التي تفرض على التجارة ومعاملاتها، وأن تكون لهم الحرية في استخدام المكاييل والموازين الخاصة بهم في تعاملاتهم التجارية من بيع وشراء، وغيرها من الامتيازات(٥).

حرصت كذلك الحكومات الإسلامية في مصر وبلاد الشَّام خلال فترات الهدنة بينهم وبين الصليبيين، على تقديم مختلف أنواع التسهيلات لطمأنه وتشجيع التجار الأجانب على التجارة في أسواقها بعيدًا عن الحروب التي دارت مع حكوماتهم(٦)، وعقد هؤلاء التجار مع الحكومات في مصر وبلاد الشَّام العديد من الاتفاقيات التجارية، والتي وفرت وضمنت لهم الكثير من الامتيازات التجارية، كالحصول علي مستودعات خاصة بهم في الموانئ المصرية والشَّامية، بل وأحيانًا أحياء خاصة اشتملت على فنادق وكنائس(٧)؛ وجاء صلح الرَّمْلَة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) مؤكدًا على

(١) هايد: تاريخ التجارة، ج٢، ص٧٣، ٧٤.
الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٣٥؛ مصطفى غازي: التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية، **(١٠)** ص١٢٧.
(٣) هايد: المرجع السابق، ج٢، ص٧٣.
(٤) هايد: نفس المرجع ، ج٢، ص٧٤، ٧٥.
(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٧٩-٣٨٢؛ عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م، ص١٣٢-١٣٥.
(٦) هايد: المرجع السابق، ج٢، ص٢٣-٢٤، ٣٨-٣٩، ٦٣-٦٥، ٧٠؛ عادل زيتون: المرجع السابق، ص٢٠٣-٢٠٥؛
Maximiliano A. Alarcón y Santón y Ramón García de Linares: Los Documentos Arabes Diplomáticos, P.337.
(٧) هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص١١٩، ١٢٠، ١٦٥؛

حرية التجارة بين العرب المسلمين، وتجار الدول الأوروبية والنصارى، ليمنحهم مزيدًا من الطمأنينة على أموالهم وتجاراتهم(١).

لعل ما ذكره ابن جبير(٢) يعتبر دليلًا واضحًا على الحرية المطلقة التي تمتع بها تجار النصارى بالموانئ المختلفة فقال: "وتجار النصارى أيضًا لا يمنع أحدهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين ضريبة على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون في حربهم... وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا وحربًا...".

وبالرغم مما بذلته الحكومات المتعاقبة في مصر وبلاد الشَّام خلال فترة البحث من جهود لتشجيع التجار الأجانب بالعمل والمتاجرة في أسواق موانئها المختلفة ومع إعطائهم الامتيازات والتسهيلات المختلفة لذلك(٣).

غير أنه تعرض بعض التجار لمصادرة أموالهم وممتلكاتهم في بعض الأحيان، ومثال على ذلك: ففي سنة (٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م) حضر بعض التجار المسافرين إلى جزيرة قُبْرُص، وكانوا من الإفرنج، ووصل التاجر أمام السلطان الناصر قلاوون، وشكى إليه نائب طَرَابُلُس بأنه ظلمه، وأخذ كل ما كان معه من أموال وتحف، فغضب السلطان من هذا التصرف، وبعدها كتب السلطان إلى نائبه بالشَّام بإرجاع الاموال المصادرة إلى صاحبها(٤)؛ وكذلك الحال أيضًا، ففي سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) انعدم تواجد القماش بالفُسْطَاط، وانعدم فرو السنجاب، حتى لم يوجد منهما شيء، فنزل الجنود إلى القياسر، وأخذوا الأثواب المختلفة، وهجموا حتى على البيوت، وأشاعوا

Maximiliano A. Alarcón y Santón y Ramón García de Linares: Los Documentos Arabes Diplomáticos, P.337, 373-374.

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج٤، ص٣٢٩؛ أمين أبو دمعة: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص١٨٦.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٢٦٠-٢٦١.

(٣) من ذلك ما قام به السلطان المملوكي الأشرف قايتباي (٨٧٢- ٩٠١ هـ/ ١٤٦٧- ١٤٩٦م)، حيث أنه في سنة (٩٠١هـ/١٤٩٦م)، ومن خلال المعاهدة التي وقعها مع تجار البندقية، ونصت أحد بنودها على حماية تجار البندقية ومتاجرهم وأموالهم ومراكبهم، بالإضافة إلى حماية تركة وأموال من يتوفى من تجارهم بمصر، فنصت المعاهدة على أن تسلم تركة هؤلاء التجار إلى قناصلهم بمصر أو إلى رفاقه من التجار. (للمزيد انظر:

Michele Amari: I Diplomi Arabi Del R. Archivio Fiorentino: Testo Originale Con La Traduzione Letterale E Illustrazioni, Firenze: Le Monnier, University Of Illinois, 1863., P.186,191)

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣٨، ٢٣٩

للسلطان أن التجار مرابين لتبرير ما فعلوه بهم[١]؛ كما تعرض التجار في ميناء دِمْيَاط لمصادرة أموالهم[٢].

تجدر الإشارة إلى أن الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشَّام اتخذت من التجار الأجانب المنتشرين في أسواق الموانئ المصرية والشَّامية أداة ضغط، وذلك في حال عجزها عسكريًا عن الرد على الاعتداءات التي كان يقوم بها القراصنة على الموانئ المصرية والشَّامية؛ والمثال على ذلك ما قام به السلطان المملوكي سيف الدين خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م)[٣] ردًا على اعتداءات قراصنة جزيرة رودس على الموانئ الإسلامية المملوكية، فأصدر السلطان أمره بألقاء القبض على تجارهم وقناصلهم ومؤيديهم من التجار الأجانب؛ وأيضًا ما حدث في عهد السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م) حينا قام القراصنة من جزيرة رودس بالهجوم على المراكب التجارية في أسواق موانئ الإسكَنْدَرِيَّة ودِمْيَاط وصُور؛ وبالمقابل لم يكن رد الدولة ردًا عسكريًا؛ بل أتخذ من سياسة التهديد معالجة للموقف، فقام السلطان بفرض غرامة على جميع التجار الصليبيين في الموانئ الإسلامية دون استثناء كما قام بسجن عدد كبير منهم[٤].

(١) اليوسفي: ، نزهة الناظر، ص٣٥٠-٣٥١.
(٢) اليوسفي: المصدر السابق، ص٣٥٤.
(٣) السلطان سيف الدين خُشْقَدَم (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م): هو السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد الناصري المؤيدي، وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، تولى السلطنة بعد خلع الملك المؤيد أحمد، وذلك في سنة (٨٦٥هـ/١٤٦١م)، وكان رومي الأصل من عبيد الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه، ثم تدرج في المناصب حتى وصل إلى منصب السلطنة، وعظم امر السلطان خشقدم بآخر عمره، وخافه الخاص والعام، حتى مرض السلطان، وتوفى في عام (٨٧٢هـ/١٤٦٧م). (ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، ج٢، ص١٧٣-١٧٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٧٨، ٣٧٩، ٤٦٦-٤٦٧).
(٤) المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٤٠؛ فائز علي بخيت: المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الاقتصادي الصليبي على مصر، الفصل العاشر، ضمن موضوعات في عصر الحروب الصليبية المتأخرة ١٢٩١-١٦٠٩م/٦٩٠-١٠١٧هـ، تحرير: عادل اسماعيل محمد هلال، كلية الآداب، جامعة دمنهور، ٢٠٢٠م، ص١٥٥.

الخاتمة:

بعد توفيق من الله سبحانه وتعالي، وتيسيره لي في اتمام جمع المادة العلمية المتعلقة بطوائف التجار وأقسامهم في أسواق الموانئ في مصر وبلاد الشَّام منذ قيام الدولة الفاطمية حتى نهاية الدولة المملوكية (٣٥٨- ٩٢٣هـ /٩٦٨ – ١٥١٧م)، كان لزامًا على الباحث تسجيل ما قد توصلت إليه الدراسة من نتائج، وأهمها ما يلي:

١- **أوضحت الدراسة** أهمية فئة التجار للدولة، حيث كان التجار المصدر الرئيس الذي يمد الدولة بالمال، ولاسيما في أوقات الشدة، ولذلك عمد السلاطين إلى تقريب التجار منهم، واصْطَفوا منهم ندماء وأصحاب، كما تمتع التجار باحترامٍ كبيرٍ وبمكانةٍ بارزةٍ في مصر بين عناصر المجتمع خلال فترة البحث.

٢- **ألقت الدراسة** الضوء على أقسام التجار في أسواق الموانئ بمصر وبلاد الشام، حيث قسم التجار حسب ديانتهم، فكان منهم تجار المسلمين، وتجار أهل الذمة، وقاموا بدور كبير في ازدهار أسواق الموانئ وإمدادها بكافة السلع المختلفة.

٣- **كشفت الدراسة** أن التجار شكلوا فئَة هامَّة في بناء المجتمع خلال فترة البحث، وكان النشاط التجاري بين الشرق والغرب سببًا مباشرًا في ازدياد ثراء هؤلاء التجار وجعلهم طبقة غنية إلى حد كبير، فصارت بأيديهم الثروات الكبيرة والأموال الطائلة والمنشآت التجارية المختلفة في أسواق الموانئ المصرية والشَّامية، وعاش البعض منهم في رغد ورفاهية وطيب حياة.

٤- **بينت الدراسة** أن بعض التجار كانوا متخصصين في بيع سلع معينة، فمنهم تجار البُهار، وبائعي البُخور، والعطور، وتجار الشمع والصابون، وتجار الغزل والنسيج، فضلًا عن تجار السلع الأوروبية الواردة لأسواق الموانئ المحلية كميناء الإسكندرية، وكان يعتبر هؤلاء التجار من الطبقة الغنية، إذ كانت للبعض منهم ثروات ضخمة.

٥- **أثبتت الدراسة** أن بعض التجار الكارمية أقرضوا السلاطين الأموال للقيام بالمشروعات سواءً كانت حربية أو مدنية، ويعتبر السلطان الناصر محمد بن قلاوون من أكثر سلاطين المماليك اقتراضًا من التجار.

٦- **رصدت الدراسة** الكثير من فئة تجار أهل الذمة (اليهود والنصارى)، وكان لهم نشاط ملحوظ في أسواق الموانئ المختلفة، حيث عمل جزء كبير منهم بالتجارة فيما بين مصر وبلاد الشام، ووصف عدد كبير منهم بالثراء الكبير، وتملكوا المراكب التجارية.

٧- **اتضح من خلال الدراسة** أن الحكومات المتعاقبة حاولت تشجيع التجار الأجانب، فجعلت لكل طائفة منهم فنادق خاصة للنزول والإقامة بها كفنادق البندقية، وفنادق جنوة، وبيزة، ونابلي، ومارسيليا، وأربونة، وقطالونية وغيرها.

٨- **نوهت الدراسة** إلى تعرض بعض التجار الأجانب لمصادرة الأموال والممتلكات من قبل بعض الحكام، في مصر وبلاد الشام.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر العربية:

الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الإدريسي ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م):

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: روبيناتشي، وآخرون، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مجلدان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م):

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (د.ت).

ابن بسام التنيسي (شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد ت نحو ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

- أنيس الجليس في أخبار تنيس، تحقيق: جمال الدين الشيال، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (١٤)، ١٩٦٦م.

ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ/١٣٨٠م):

- رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، ١٩٩٧م.

بنيامين (بنيامين بن بونة التطيلي الأندلسي ت٥٦٩هـ/١١٧٣م):

- رحلة بنيامين، ترجمة: عزرا حداد، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠١م.

بيرو طافور(عاش في القرن ٩ هـ/١٥م):

- رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة وتقديم: حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف بن سيف الدين بن تغري بردي الأتابكي ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م):

- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبدالعزيز، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٧م.

ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ت٦١٤هـ/١٢١٧م):

- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦):

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ت ٣٠٠هـ/٩١٢م):
- المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م.

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت).

أبو شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م):
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ابن شاهين الظاهري (غرس الدين بن خليل الظاهري ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م):
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راوايس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٢م.

ابن الشحنة (القاضي محمد بن محمد بن محب الدين بن الشحنة الحلبي ت ٨١٥هـ /١٤١٢م):
- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم: عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

القلقشندي (عبدالله بن أحمد القلقشندي ت٨٢١هـ/١٤١٨م):
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، الجزء الخامس والسابع، ١٣٣٣هـ/١٩١٥م.

المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م):
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، ١٩٠٦م.

المقريزي (تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م):
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، وزارة الأوقاف، المجلس الاعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، طبع بمطبعة التأليف بمصر، ١٩٨٥م.

ابن مماتي (الوزير الأيوبي الأسعد بن مماتي ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م):
- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز عطية، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

ناصر خسرو قبادياني (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م):
- سفر نامة، ترجمة: يحيى شامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):
- خريدة العجائب، تحقيق: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م

اليعقوبي (أبو العباس أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب اليعقوبي ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م):
- كتاب البلدان، تعليق: محمد أمين ضناوي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

اليوسفي (موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م):
- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة:

آ. آشتور (دكتور):
- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبدالهادي عبله، دار قيبة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥م.

آدم متز:
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب: محمد عبد الهادي أبو رَيْدَة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٦٧م.

جوايتاين س. د (دكتور):
- دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق: عطية القوصي، نشر وكالة دار المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

راشد البراوي (دكتور):
- حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.
- زكي النقاش:

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج، لبنان، بيروت، ١٩٥٨م

سونيا. ي. هاو:
- في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة، القاهرة، ١٩٥٧م.

سلام شافعي محمود سلام (دكتور):

- أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي (٤٦٧-٦٤٨هـ/١٠٥٤-١٢٧٠م)، دار المعارف، مصر، ١٩٨٢م.

سماح السلاوي (دكتور):
- الجاليات الأجنبية في مصر في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠١٤م.

السيد عبدالعزيز سالم (دكتور):
- تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦م.
- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٦م.

شوقي عبد القوي عثمان حبيب (دكتور):
- التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

صالح موسى درادكه:
- دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام، وزارة الثقافة، عَمان، الطبعة الأولى ،٢٠١١م.

عادل زيتون (دكتور):
- العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م.

عبدالمنعم ماجد (دكتور):
- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة،١٩٧٩م.

محمد عبدالله سالم العمايرة (دكتور):
- المعجم العسكري المملوكي، دار كنوز للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

محمد عتريس:
- معجم بلدان العالم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠١م.

محمد كرد علي:
- خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

محمود محمد الحويري (دكتور):
- أسوان في العصور الوسطى، مطبعة القاهرة الجديدة، القاهرة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

نادية محسن عزيز:
- مدينة الرقة ودورها الحضاري في العصر العباسي١٣٢-٣٨٠ هـ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٠م.

نعيم زكي فهمي (دكتور):
- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصُور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

هاشم عثمان:
- الأبنية والأماكن الأثرية في اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٦م.

هايد:
- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصُور الوسطى، تعريب أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩١م.

هنري بيرين:
- تاريخ أوروبا في العصُور الوسطى، ترجمة: عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٦م.

وليم الصوري:
- الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٢م.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

أمين أبو دمعة (دكتور):
- الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

مصطفى غازي مصطفى بدور(دكتور):
- التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية ٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠- ١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠١٦م.

رابعًا: الدوريات:

أميمة أحمد السيد (دكتور):
- المهر والشوار في مصر العربية الإسلامية من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية (٢١-٥٦٧ هـ /٦٤١-١١٧١م) دراسة تاريخية وثائقية، مجلة وقائع تاريخية، عدد يوليو، ٢٠١٨م.

صبحي لبيب (دكتور):
- التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد (٤)، العدد (٢)، مايو ١٩٥٢م.

فوزي خالد الطواهية (دكتور):
- النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (٥٩٦-٦٤٨هـ/١١٧٣-١٢٥٠م)، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج٤٢، العدد٢، ٢٠١٥م

ممدوح محمد حسن (دكتور):
- الإجراءات والرسوم الجمركية في الموانئ اليمنية في عهد الدولتين الأيوبية والرسولية، مجلة كلية الآداب بقنا، العدد (٣٤)، ٢٠١١م.

خامسًا: المراجع الأجنبية:

C, Raymond, Beazley, M, A: The Down Of Modern Geography, London, Vol. II,1901.

Jessica L. Goldberg: Geographies Of Trade And Traders In The Mediterranean: A Study Based On Documents Eleventh-Century From The Cairo Geniza, Columbia University, 2005.

Maximiliano A. Alarcón y Santón y Ramón García de Linares: Los Documentos Arabes Diplomáticos del Archivo de La Corona de Aragón, Madrid, Impr, de E. Maestre, 1940.

Michele Amari: I Diplomi Arabi Del R. Archivio Fiorentino: Testo Originale Con La Traduzione Letterale E Illustrazioni, Firenze: Le Monnier, University Of Illinois, 1863.